الاستلقاء بلا عمل طيلة الوقت، دون قراءة الكتب أو الاستذكار كان إلى حد ما ممتعًا، ومريحًا. مر شهران أو أكثر وأصبحت ثيابي رثة وقذرة من جديد. لم أستطع أن أفهم كيف أعجبني العيش في منزل الأرملة دوجلاس إلى هذا الحد، حيث تعين على المرء الاغتسال والأكل من الأطباق، وتمشيط شعره، والخلود إلى النوم والنهوض منه في أوقات محددة، والاهتمام بقراءة كتاب ما. لم أرد أن أعود إلى هناك، إلا أنني من ناحية أخرى لم أرد أيضًا أن أمكث مع والدي.

حاولت أن أخرج من الكوخ عدة مرات، لكن لم أهتد قط إلى طريقة، فالنوافذ كانت شديدة الصغر، وضيق فتحة المدخنة الشديد منعني من تسلقها. فتشت المكان مئات المرات إلى أن عثرت أخيرًا على منشار قديم صدئ، أخذت أصنع ثقبًا بالمنشار في الجزء السفلي من ظهر الكوخ. أردت أن أصنع فتحة تتسع لأن أزحف مارًّا عبرها. استغرقت تلك المهمة وقتًا طويلًا، لكنني كنت قد شارفت على الانتهاء منها عندما سمعت صوت بندقية أبي بالغابة، فأخفيت ما يدل على ما كنت أعمل عليه، ولم يمض وقت طويل قبل أن يصل أبي.

لم يكن في مزاج جيد — كالمعتاد — فقد كان بالبلدة، لم تسر المحاكمة على ما يرام، وسير القضية كان بطيئًا ويستغرق وقتًا طويلًا. قال محاميه إنه قد يخسر القضية، وسيتعين علي عندئذ أن أعود إلى الأرملة، وأنا حقًّا لم أرد هذا. شعر والدي بغضب عارم في لحظة ما وهو يتحدث عن الأمر حتى إنه ركل برميل زيت قديم وآذى قدمه، فأخذ يقفز في أرجاء الغرفة صائحًا باللعنات وقتًا طويلًا. لم تثر ثائرته هكذا من قبل.

أمرني والدي بالذهاب إلى قاربه لإحضار ما أتى به. خطر لي وأنا خارج المنزل أن معاناتي قد انتهت وقررت أن أغادر الكوخ ببندقية والدي وبعض صنارات صيد الأسماك. كنت سأختبئ بالغابات عندما أفر، ولا ألزم مكانًا واحدًا بل أجوب أرجاء البلاد ليلًا في الأغلب، وأصيد الأسماك والحيوانات لأظل على قيد الحياة. كنت سأفر إلى مكان بعيد جدًّا حتى إن والدي والأرملة دوجلاس لن يستطيعا قط العثور علي.

كان مزاج والدي سيئًا للغاية بعد العشاء. حسبت أنه لن يلبث أن ينام؛ عندئذ ستسنح لي سرقة مفتاح الكوخ أو صنع فتحة بالمنشار أخرج منها، إلا أنه لم ينم، بل أخذ يتذمر وينوح ثم بدأ يسير جيئة وذهابًا في المكان وقتًا طويلًا، حتى غلبني النعاس في آخر الأمر ولم أستطع إبقاء عيني مفتوحتين، وما لبثت أن وجدت نفسي مستغرقًا في نوم عميق.

لكنني سمعت فجأة صوت صراخ مريع، فاستيقظت. بدا أن أبي قد جن؛ كان يقفز في أرجاء المكان ويصيح بسبب ثعابين قال إنها تزحف متسلقة ساقيه، ثم أخذ يقفز ويصيح، إلا أنني لم أر أي ثعابين، ولم أر قط رجلًا تقدح عيناه بالشرر هكذا. كان يتوهم أشياء، لذا حسبته مريضًا، بل مجنونًا. لم يلبث أن شعر بالتعب وهوى على الأرض حيث تقلب عدة مرات بسرعة شديدة وهو يركل الأشياء بقدميه ويتشبث بيديه بالهواء ويصيح بأن هناك شياطين في كل مكان، وفي آخر الأمر شعر بالتعب مجددًا وتمدد ساكنًا بعض الوقت يتأوه.

قال: «خطى ثقيلة! الموتى قادمون! طاخ طاخ طاخ. قادمون لملاحقتي، لكنني لن أذهب. إنهم هنا! لا تلمسوني! أيديكم باردة، أفلتوني! آه، اتركوا شيطانًا مسكينًا لحاله.»

ثم زحف مبتعدًا متوسلًا أن يُترك وشأنه، ثم لف غطاء حول نفسه وأخذ يبكي.

لكن قبل أن يمضي وقت طويل هب وأخذ يركض خلفي. لاحقني في أرجاء الكوخ وهو يناديني بملاك الموت. أمسك بي ذات مرة من سترتي من بين كتفي، فظننت أنني هالك لا محالة، لكنني انسللت من السترة بسرعة البرق ونجوت بنفسي، وفي وقت قصير غشيه التعب مجددًا، فسقط على الأرض وهو يولي الباب ظهره.

وسرعان ما غشيه النوم، فتسلقت كرسيًّا متوخيًا الهدوء قدر الإمكان وأخذت البندقية وتأكدت من أنها محشوة بالرصاص، ثم وضعتها على براميل بمواجهة والدي، ثم جلست أنتظر أن يتحرك. بدا الوقت ساكنًا جدًّا ومر ببطء شديد.

4

الفصل الرابع

اكتشاف

– «انهض! ما الذي تفعله؟»

كانت الشمس قد غربت وأنا مستغرق في النوم منذ فترة. وقف أبي وقامته تعلوني والتجهم والسقم باديان عليه، ثم قال: «ما الذي تفعله بهذه البندقية؟»

أدركت أنه لم يدر على الإطلاق بما فعله الليلة الماضية، فقلت: «حاول شخص ما الدخول. كنت أنتظره.»

– «لِم لَم توقظني؟»

– «حاولت لكنني لم أستطع أن أجعلك تتحرك قيد أنملة.»

– «حسنًا. لا تقف مكانك طوال اليوم. اخرج لترى إن كانت السنارة قد اصطادت سمكة نفطر بها.»

فتح أبي الباب، فركضت إلى الخارج متجهًا إلى ضفة النهر. لاحظت أن بعض أفرع الأشجار والأشياء تطفو مع ماء النهر، فأدركت أن مياهه قد أخذت في الارتفاع، فلما سرت على طول ضفته رأيت قاربًا. كان قاربًا جميلًا يبلغ طوله نحو ثلاثة عشر أو أربعة عشر قدمًا، فغصت برأسي أولًا ثم بجسمي كله في الماء مرتديًا كامل ملابسي، وسبحت نحوه. خطر لي في البداية أن والدي سيسعد برؤيته، إذ سيساوي ثمنه عشرة دولارات على الأقل، لكنني عندما صعدت إلى الشاطئ لم أجد والدي، فواتتني فكرة أخرى. قررت أن أخفي القارب وأن أطفو به بالنهر خمسين ميلًا لأخيم في مكان ما إلى الأبد بدلًا من الاختباء في الغابة عندما أفر.

كنت بحلول هذا الوقت على مسافة شديدة القرب من كوخ والدي. ظل يُهيأ لي أنني أسمع صوت والدي وهو قادم، لكنني استطعت آخر الأمر أن أخبئ القارب، ثم رأيت

والدي وهو في طريقه إلي، كان يصوب بندقيته نحو طيور على مسافة بعيدة. لم يكن قد رأى شيئًا.

بعد الإفطار حاولت أثناء استراحتي أنا وأبي أن أفكر في طريقة تمنعه هو والأرملة من تعقبي، سيكون هذا أفضل من الركون إلى أنني أستطيع الفرار قبل أن يلحظا غيابي. ظللت لحظة عاجزًا عن الاهتداء إلى طريقة، لكن في آخر الأمر نهض أبي من رقدته وجلس منتصبًا ليشرب بعض الماء ثم قال: «إن رأيت شخص ما يجول خلسة بالجوار ثانية أيقظني، هل فهمت؟ هذا الرجل لم ينو خيرًا. من الأفضل لك أن توقظني المرة القادمة.»

ثم تمدد وغشيه النوم. ما قاله أمدني بالفكرة التي كنت أحتاج. أمكنني الآن حل المشكلة بحيث لا يفكر أحد أبدًا في تعقبي.

نهضنا قرابة الظهيرة وسرنا على ضفاف النهر. كانت مياه النهر ترتفع بسرعة كبيرة، وقد مر بنا الكثير من الخشب الذي حمله الماء، ولم يمض وقت طويل قبل أن يأتي الماء بجزء من طوف يتكون من تسعة ألواح خشبية مربوطة بعضها إلى بعض، فاتجهنا إليه وجذبناه إلى الشاطئ. أراد أبي أن يتجه مباشرة إلى البلدة لبيع خشبه، فاحتجزني بالكوخ، وأخذ قاربنا الصغير وشرع في ربط الطوف بالقارب. أغلب الظن أن الساعة كانت الثالثة والنصف تقريبًا آنذاك. لم أحسب أنه سيعود مساء هذا اليوم. انتظرت إلى أن شعرت أنه قد ابتعد مسافة كافية، ثم ذهبت لأعاود العمل بمنشاري، وغادرت الكوخ قبل أن يبلغ الناحية الأخرى من النهر.

حملت كل المؤن التي لدينا إلى القارب: فحملت دقيق الذرة، ونصف قطعة لحم خنزير مقدد، وكل القهوة، والسكر، والذخيرة، وأخذت الدلو واليقطينة والمغرفة والكوب القصديري، ومنشاري القديم، وبطانيتين، والمقلاة، ووعاء القهوة، كما أخذت بعض صنانير الصيد، وأعواد الثقاب، وكل ما يساوي ثمنه سنتًا. بعبارة أخرى، أفرغت المكان. أردت فأسًا، لكن لم يكن بالكوخ سوى فأس واحد، وقد خططت لاستخدامه على وجه محدد، في آخر الأمر أخذت معي البندقية.

غطيت آثاري وغطيت الفتحة التي صنعتها في ظهر الكوخ، ووقفت على ضفة النهر، وراقبت الطريق؛ كان آمنًا.

ثم أخذت الفأس وحطمت الباب، وهذا كله كان جزءًا من خطتي. ضربت الباب وكسرته تكسيرًا، ثم سكبت دم خنزير قديم في جميع أرجاء المكان، ثم جررت كيسًا

مملوءًا بالأحجار على الأرض نحو النهر، مخلفًا أثرًا بشع المنظر، وكأن جثة ما قد جُرت. تمنيت لو أن توم سوير معي، فأنا أعلم أنه كان سيجد هذا مشوقًا وكان سيضفي بعض اللمسات الرائعة على الأمر.

بعدئذ نتفت بعض الشعر من رأسي، وحرصت على أن تغطي دماء الخنزير الفأس، الذي ألصقت به بعض هذا الشعر، ثم ألقيته في ركن من الكوخ، وخطرت لي فكرة جديدة، فأخذت كيس دقيق الذرة وثقبته ثقبًا صغيرًا ثم تركت أثرًا في الاتجاه المعاكس لقاربي، وحملت الكيس بين الحشائش إلى بحيرة ضحلة، وألقيت الحجر الذي يستخدمه أبي في شحذ سكينه هناك، وكأنه ترك هناك صدفة، ثم أحكمت إغلاق الثقب الموجود بالكيس وأعدته إلى القارب.

كان الظلام بحلول هذا الوقت قد حل تقريبًا، من ثم أدنيت القارب من النهر تحت بعض أشجار الصفصاف التي تدلت على ضفته وانتظرت طلوع القمر، وتناولت بعض الطعام، ثم تمددت بالقارب لأضع خطة. قلت لنفسي: سيتتبعون الأثر المؤدي إلى الشاطئ ثم يتبعون أثر دقيق الذرة إلى البحيرة ويبحثون عني هناك، وسيظنون أن سارقًا ما قتلني وأخذ كل شيء، فلن يبحثوا إلا عن جثتي، فلا يمضي وقت طويل قبل أن يسأموا من ذلك، فيكفوا تمامًا عن البحث عني. قررت أن أختبئ بجزيرة جاكسون فأنا على دراية جيدة بنواحيها، ولم يقصدها أحد قط، عندها أستطيع أن أجدف بالقارب ذهابًا إلى البلدة ليلًا لأتسلل خلسة وأجلب ما أريد.

شعرت بالتعب الشديد، ولم يمض وقت طويل قبل أن يغشيني النوم، فلما نهضت لم أدر لوهلة أين أنا، فنهضت من رقدتي وجلست منتصبًا ونظرت حولي، شاعرًا بشيء من الخوف، ثم تذكرت أين أنا. بدا النهر ممتدًّا أميالًا بعيدة، وسطع ضوء القمر بقوة حتى إنه أمكنني إحصاء أحطاب الأشجار السوداء التي حملها الماء. كان كل شيء ساكنًا تمامًا. بدا الوقت متأخرًا، وتجلى هذا في رائحة النسيم، أتفهم مقصدي؟ فالأمر أكبر من أن تصفه كلمات.

تثاءبت وتمددت وكدت أن أحل القارب وأبدأ في التجديف به لكنني عندئذ سمعت صوتًا بالماء، فأرهفت السمع فلم ألبث أن تبينته. كان ذاك صوت مجاديف تتحرك في الماء؛ شق صوتها الخافت الرتيب سكون الليل. اختلست نظرة من بين أغصان أشجار الصفصاف فرأيت قاربًا صغيرًا على مسافة بعيدة بالماء، لم أستطع أن أتبين عدد راكبيه، ظل يقترب إلى أن وجدت أن به رجلًا واحدًا. حسبته أبي، مع أنني لم أكن أتوقع هذا.

سرعان ما أصبح الراكب شديد القرب مني بدرجة تمكنني أن أمد ذراعي وألمسه. كان كما هو متوقع أبي.

من ثم لم أضيع أي وقت؛ وفي غضون دقيقة كنت أسير بالقارب بهدوء مع ماء النهر. ابتعدت بضعة أميال، ثم اتجهت إلى وسط النهر. لن يمضي وقت طويل قبل أن أمر بعبارة ترسو قد يراني من على متنها إن اقتربت جدًّا، فشققت طريقي بين الأخشاب الطافية على وجه الماء ثم تمددت على أرض القارب لئلا يراني أحد، وتركت القارب يطفو.

تمددت واسترحت وقتًا طويلًا وأنا أنظر إلى السماء الصافية من الغيوم التي تبدو بعيدة جدًّا عندما تتمدد على ظهرك تحت ضوء القمر، لم أعلم ذلك من قبل. بإمكانك أيضًا أن تسمع الأصوات على ظهر الماء من مكان بعيد جدًّا؛ فقد تنامى إلى مسامعي أصوات أناس يتحدثون على العبارة الراسية، وسمعت كل كلمة مما يقولون؛ قال أحدهم إن النهار في هذا الوقت يطول فيما يقصر الليل، فقال آخر إن اليوم لم يكن قصيرًا، فضحكوا، وسمعت رجلًا منهم يقول إن الساعة الثالثة صباحًا تقريبًا، بعدئذ تباعدت أصواتهم أكثر فأكثر إلى أن صرت غير قادر على تمييز كلماتهم، لكن أمكنني سماع تمتماتهم بغير وضوح، وضحكاتهم بين الحين والآخر إلا أنها بدت قادمة من مكان بعيد.

مر بعض الوقت، ونهضت من رقدتي وجلست منتصبًا، فوجدت أمامي جزيرة جاكسون، تكسوها الأشجار وتبدو شاسعة، مظلمة، ساكنة، وكأنها زورق بخاري بلا أضواء.

لم يستغرق الذهاب إلى هناك وقتًا طويلًا؛ جدفت بالقارب إلى موضع من ضفة النهر كنت أعرفه، واختبأت بين أشجار الصفصاف، فلما انتهيت لم يكن بمقدور أحد أن يرى الزورق.

قصدت الجزيرة وجلست على قطعة خشب في مقدمتها، ثم تطلعت إلى النهر الكبير والخشب الذي يطفو به. رأيت ثلاثة أو أربعة أضواء تلتمع بالبلدة على مسافة بضعة أميال ودنا طوف خشبي كبير على بعد ميل أعلى النهر في منتصفه مصباح. شاهدته وهو يقترب ببطء، فلما اقترب سمعت رجلًا يقول: «طوف هناك! اتجهوا إلى الميمنة.» سمعته بوضوح وكأنه كان يقف إلى جانبي.

كانت السماء قد شقها القليل من الضوء بحلول ذلك الوقت، فقصدت غابة الجزيرة وتمددت بها لأنام قليلًا قبل أن أفطر.

الفصل الخامس

نار من مخيم

تكاسلت صباح اليوم التالي ولم أرد أن أنهض لطهو الإفطار، فغفوت ثانية لكنني عندئذ سمعت صوت دوي مدفع مكتوم قادم من أعلى النهر. نظرت من فتحة بين الأشجار فرأيت الكثير من الدخان فوق الماء، ينبعث من نقطة بعيدة بأعلى النهر بالقرب من العبارة الراسية التي امتلأت بحشد من الناس، فأدركت ما يجري. دوى صوت «بوم!» مجددًا، ثم رأيت الدخان الأبيض ينبعث من جانب العبارة؛ كان هؤلاء القوم يطلقون النار من مدفع فوق الماء محاولين أن يجعلوا جثتي تطفو فوق سطح الماء.

طفت العبارة مع تيار الماء ولم يمض وقت طويل قبل أن أرى من على متنها: والدي، والقاضي ثاتشر، وجو هاربر وتوم سوير، وعمته العجوز بولي، وسيد وآخرون كثيرون. كان الجميع يتحدثون عن جريمة القتل.

سرعان ما مرتْ عبارتهم بي وابتعدتْ عن مرمى بصري وهي تدور حول الجزيرة. أمكنني بين الحين والآخر سماع دوي المدفع الذي أخذ صوته يبتعد أكثر فأكثر إلى أن صرت عاجزًا عن سماعه. ساءني أنني كذبت عليهم هكذا، لكنني لم أدر ما الذي كان بوسعي فعله غير هذا؛ لم أرد أن يعثر علي أبي، ولم أرد أن أعود إلى حياتي القديمة مع الأرملة دوجلاس.

تأكدت من أن أموري تسير على ما يرام لما لم يأت أحد آخر للبحث عني، فأخرجت أغراضي من القارب ونصبت مخيمًا جميلًا في الغابة كثيفة الأشجار؛ فصنعت ما يشبه الخيمة من بطانياتي لأضع تحتها أغراضي لئلا يصل إليها المطر، وصدت سمكة سلور، وقرابة مغرب الشمس أشعلت نار مخيمي وتناولت العشاء.

عندما حل الظلام، جلست بالقرب من النار شاعرًا بالسعادة، لكن قبل أن يمضي وقت طويل شعرت بالوحدة نوعًا ما، فجلست على ضفة النهر وأصغيت إلى صوت جريان

الماء، وعددت النجوم وقطع الخشب الطافية على الماء، ثم خلدت إلى النوم، فليس هناك طريقة أسهل منه لتشعر بأنك أفضل حالًا عندما ينتابك الشعور بالوحدة؛ فسرعان ما تنسى هذا الشعور.

ظلت تلك حالي ثلاثة أيام وليال، كان كل يوم فيها كسابقه، بعدها ذهبت لتقصي الجزيرة. شعرت بأنها بأسرها ملكي، وأردت أن أعرف كل شيء عنها. فعثرت على الكثير من الفراولة، وعنب الصيف الأخضر، والتوت الأخضر، وثمر العليق الذي كان قد بدأ لتوه في الإزهار، وظننت أن هذه الثمار ستفيدني.

كدت أيضًا أن أصطاد ثعبانًا؛ ركضت خلفه عندما وطئت قدمي فجأة رماد نيران كان الدخان لا يزال ينبعث منه. شخص آخر كان على جزيرتي!

قفز قلبي بين ضلوعه. ولم أرد المكوث أكثر في تلك النقطة لتفقدها، بل عدت خلسة على أطراف أصابعي بأقصى سرعة ممكنة، وتوقفت من حين لآخر وأرهفت السمع، إلا أنني كنت ألهث بشدة حتى إنني لم أستطع سماع أي صوت آخر سوى صوت لهاثي.

عندما عدت إلى مخيمي، لم أجد في نفسي الكثير من الشجاعة، وحدثتني نفسي بأنني لا أملك وقتًا للعبث، فجمعت كل أغراضي وأطفأت نار مخيمي، ونثرت رمادها في أرجاء المكان ليبدو وكأنه رماد لمخيم قديم من العام الماضي، ثم تسلقت شجرة.

ظللت فوق الشجرة ساعتين تقريبًا، لكنني لم أر أو أسمع خلالهما شيئًا. هُيأ لي بضع مرات أنني أسمع وأرى شيئًا قادمًا، ولما لم يكن بإمكاني أن أظل على الشجرة إلى الأبد، هبطتها آخر الأمر ومكثت في الغابة كثيفة الأشجار، وظللت يقظًا طوال الوقت. لم يسعني عندئذ إلا أكل ثمار العليق وما تبقى من إفطاري.

بحلول المساء شعرت بالجوع الشديد، فلما حل الظلام وأصبح الوقت مناسبًا، نقلت قاربي وجدفت به عبر النهر وقصدت الغابة وطهوت عشائي وكدت أن أقرر أن أمكث هناك طوال الليل لولا أنني سمعت صوت جياد قادمة، ثم أصوات أشخاص، فأعدت كل شيء إلى القارب بأقصى سرعة، ثم تسللت بين أشجار الغابة لأرى ما يمكنني اكتشافه، وقبل أن أوغل سمعت رجلًا يتحدث قائلًا: «علينا أن نخيم هنا الليلة إن أمكننا أن نجد مكانًا لذلك، فالجياد متعبة.»

فلم أمكث لحظة، دفعت القارب إلى النهر وجدفت مبتعدًا واختبأت مجددًا على الجزيرة حيث اختبأت من قبل، وقررت أن أنام في القارب.

لم أنم كثيرًا، فلم يكن باستطاعتي هذا. حسبت في كل مرة استيقظت فيها أن شخصًا ما قد اكتشفني. في نهاية الأمر حدثت نفسي بأنني لا أستطيع أن أحيا على

هذا النحو، فعزمت على اكتشاف من معي على هذه الجزيرة بطريقة أو بأخرى، بعدها شعرت على الفور بأنني أفضل حالًا.

تفقدت صباحًا الجزيرة أكثر، فلمحت نيرانًا بين بعض الأشجار، فاتجهت إليها ببطء وحذر، وفي وقت قصير وجدت نفسي على مسافة كافية لأن أرى رجلًا ممددًا على الأرض تغطيه بطانية، تثاءب وتمطط، وهو يزيل عنه البطانية.

كان هذا جيم! كنت سعيدًا لرؤيته بلا شك، فقلت: «مرحبًا يا جيم.» وغادرت مخبأي.

فقفز وحدق بي والخوف يطل من عينيه، ثم جثا على ركبتيه وضم كلتا يديه وقال: «لا تؤذني! لم أؤذ شبحًا قط. لطالما أعجبني الموتى وفعلت كل ما بوسعي من أجلهم. عليك أن تعود إلى النهر، إلى حيث تنتمي. لا تؤذ جيم العجوز، فلطالما كنت صديقك.»

لم يستغرق إفهامه أنني لست ميتًا ولا شبحًا وقتًا طويلًا. شعرت بسعادة شديدة لرؤيته، إذ لم أعد وحيدًا، وكنت متأكدًا من أنه لن يخبر أحدًا بمكاني.

سألته: «كم مضى عليك هنا؟»

فقال: «أتيت إلى هنا في الليلة التالية لمقتلك، أو الليلة التي حسب فيها الناس أنك قد قتلت.»

قصدنا المكان الذي خبأت فيه القارب، فأحضرت منه بعض الطعام فيما أوقد هو النار، ولما صار الإفطار جاهزًا، تمددنا على العشب وأكلنا. كان جيم يتضور جوعًا، وبعدما أتخمنا الطعام تمدد كل منا على ظهره وشعرنا بالخمول. لم يمض وقت طويل قبل أن يسأل جيم: «لكن مهلًا، من الذي قُتل في الكوخ إن لم يكن هذا أنت؟»

فأخبرته القصة بأسرها؛ عن دم الخنزير والآثار المصطنعة وكل شيء، فقال إنها حيلة ذكية، وإن توم سوير لا يستطيع أن يبتكر خطة أفضل، ثم سألته أنا: «كيف أتيت إلى هنا يا جيم؟»

فبدا عليه الارتباك الشديد، ولوهلة لم يقل أي شيء، ثم قال: «حسنًا، إليك الأمر: السيدة العجوز واتسن تسيء معاملتي أحيانًا، لكنها كانت على الدوام تقول إنها لن تبيعني لولاية نيو أورليانز، بعدئذ لاحظت في الآونة الأخيرة أن تاجر رقيق كان يأتي كثيرًا، فبدأت أشعر بالقلق، وفي وقت متأخر من ليلة ما تسللت إلى باب المنزل فسمعت السيدة واتسن تخبر الأرملة دوجلاس بأنها تنوي بيعي في ولاية نيو أورليانز؛ قالت إنها لا تود ذلك، لكن بإمكانها أن تحصل على ثمانمائة دولار مقابل هذا، وهو مبلغ كبير لا

تستطيع مقاومته. حاولت الأرملة دوجلاس إقناعها بالعدول عن هذا، لكنني لم أنتظر سماع الباقي، وفررت بسرعة شديدة.»

الفصل السادس

منزل في النهر

ظلت مياه النهر ترتفع عشرة أيام أو اثني عشر يومًا، إلى أن فاضت آخر الأمر فوق ضفتيه. بلغ ارتفاع الماء ثلاثة أو أربعة أقدام بالجزيرة، فجدفنا نهارًا في كافة أرجاء الجزيرة في القارب، حيث كان جوف غابة الجزيرة مظلمًا باردًا، حتى إن كانت الشمس حارقة.

أتى منزل مائل من طابقين طافيًا في النهر في إحدى الليالي قبل طلوع ضوء النهار بوقت قصير. جدفنا إليه وتسلقنا إلى نافذة بطابقه العلوي ودخلنا منها. كان جسم ما ممددًا على الأرض في ركن الغرفة، يبدو وكأنه لرجل، فقال جيم: «مرحبًا يا هذا.»

لكن الجسد لم يتحرك قيد أنملة، فصحت أنا، بعدها قال جيم: «هذا الرجل ليس نائمًا، إنه ميت. ابق مكانك، سأذهب لأرى.»

فذهب ونظر إلى الرجل ثم قال: «إنه رجل ميت بالفعل. لقد تلقي رصاصًا في ظهره. يبدو أنه ميت منذ يومين أو ثلاثة أيام. تعال يا هاك، لكن لا تنظر إلى وجهه؛ فهو مخيف جدًّا.»

فلم أنظر إلى الرجل على الإطلاق. ألقى جيم خرقًا قديمة على وجهه ليتأكد من أنني لن أراه، مع أنه لم يكن بحاجة لفعل ذلك، فأنا لم أرد هذا، وحملنا الأشياء التي عثرنا عليها بالمنزل إلى القارب وجدفنا عائدين أدراجنا.

أردت بعد الإفطار أن أتحدث عن الرجل الميت وأخمن الكيفية التي قتل بها، لكن جيم لم يرد ذلك؛ قال إن هذا سيجلب الحظ السيئ، وإن الرجل الميت قد يعود إلى الحياة لمطاردتنا، فلم أتفوه بشيء آخر عن الأمر، لكنني تمنيت أن أعرف من الذي أرداه قتيلًا، وأن أعرف سبب قيامه بذلك.

13

أخبرت جيم صباح اليوم التالي أنني بدأت أشعر بالملل وبأن الوقت يمضي ببطء؛ أردت القيام بشيء جديد، فقررت أن أعبر النهر لأستطلع ما يجري. أعجبت تلك الفكرة جيم، لكنه رأى أن علي الذهاب إلى هناك في الظلام وأن أكون شديد الحذر، ثم قلب الأمر في رأسه وقال إن علي أن أرتدي بعضًا من الملابس التي عثرنا عليها في المنزل وأن أرتدي ملابس فتاة، بذا لن يظن أحد أن الفتاة هي في الواقع أنا.

جدفت عبر النهر وتحدثت إلى سيدة عجوز كشفت تنكري على الفور، فشعرت بأنني أحمق، لكنها فطنت إلى أنني صبي وحسب، ولم تعلم أنني هاكلبيري فين. لا شك أنها حسبت أنني هارب. علمت منها أن الناس يحسبون بالفعل أنني مت، لكنها قالت أيضًا إنهم اعتقدوا أن جيم هو من قتلني، فقد فر — على حد قولها — في الليلة نفسها التي اختفيت فيها، من ثم رجح أنه القاتل.

الأدهى أن العجوز قالت أيضًا إن جزيرة جاكسون سيجري تمشيطها الليلة، وإنها موقنة من أنه سيتم الإمساك بالقاتل، فاختلقت على الفور عذرًا للمغادرة وعدت أدراجي إلى المخيم، فلما بلغته، كان جيم نائمًا، فقلت له: «استيقظ يا جيم! ما من وقت نضيعه. إنهم في إثرنا.»

فلم يسألني أي أسئلة، بل إنه في الواقع لم يتحدث، لكن بدا من حركاته أنه يشعر بالخوف. حملنا كل شيء إلى طوفنا في غضون نصف ساعة ثم ركبت القارب وتلفت حولي، فلم أر أحدًا قادمًا، فربطنا القارب بالطوف ونزلنا بكليهما النهر وبدأنا في المغادرة. لم ينطق أحدنا بكلمة.

الفصل السابع

على الحطام

طفونا مع ماء النهر عدة أيام، ثم هبت عاصفة هائلة وهطل المطر كثيفًا، ولمع البرق فأمكننا رؤية باخرة تحطمت على بعض الصخور أمامنا، حملنا الماء نحوها ببطء.

قلت لجيم: «لنهبط على هذه السفينة يا جيم.»

لكنه عارض هذا تمامًا في البداية: «لا أود أن أعبث على حطام سفن غارقة. نحن بخير هنا، وعلينا أن نترك تلك الباخرة وشأنها. وعلى أي حال يرجح أن على متنها من يحرسها.»

– «ليس هناك ما يجب حراسته على متنها يا جيم. يبدو أنها على وشك أن تتصدع وتجرفها مياه النهر في أية لحظة، كما أننا قد نجد شيئًا في غرفة القبطان، فقباطنة البواخر يكونون على الدوام أثرياء. أتعتقد أن توم سوير كان سيدع أمرًا كهذا؟ بتاتًا. كان سيسمي الأمر مغامرة.»

تذمر جيم قليلًا، لكنه وافق في نهاية الأمر، وقال إن علينا ألا نتحدث كثيرًا إن صعدنا إلى متن السفينة، ثم أظهر البرق لنا الباخرة مجددًا في الوقت المناسب، فجدفنا نحوها وربطنا الطوف والقارب إلى جانبها.»

تسلقنا إلى متن السفينة في الظلام، ولم يمض وقت طويل قبل أن نكون أمام باب غرفة القبطان الذي كان مفتوحًا. أبصرنا في آخر الممر ضوءًا، وسمعنا في اللحظة نفسها أصواتًا!

قال جيم إنه يشعر بالخوف، وطلب مني المجيء معه، فوافقته، وكنت سأقصد الطوف، لولا أنني سمعت عندئذ صوتًا يقول: «آه، أرجوكم ألا تفعلوا هذا يا رجال. أقسم لكم أنني لن أشي بكم.»

فعلا صوت آخر بشدة قائلًا: «أنت تكذب يا تيرنر. لقد فعلت مثل هذا من قبل. أنت دائمًا تطلب أكثر من حصتك، وتحصل على مرادك أيضا لأنك تقسم أن تشي بنا إن لم تحصل عليه، لكنك هذه المرة تماديت في المزاح حول الأمر. أنت النذل الأكثر خسة وغدرًا في هذا البلد.»

كان جيم بحلول هذا الوقت قد قصد الطوف، لكن الفضول انتابني؛ قلت لنفسي إن توم سوير لم يكن ليتراجع الآن، من ثم لم أكن أنا أيضًا لأفعل ذلك، فزحفت متسللًا إلى أن صرت داخل الغرفة بجوار الرجال. رأيت رجلًا مقيدًا يرقد على الأرض وقد وقف رجلان يعلوانه بقامتيهما.

قال الرجل الذي يرقد على الأرض: «آه، أرجوك ألا تفعل هذا يا بيل. لن أشي بكم أبدًا.»

أخذ الرجلان يسيران إلى النقطة التي كنت فيها، فانتقلت من مكاني بأقصى سرعة، لكنني لم أجد فسحة كافية. دخلا الغرفة التي اختبأت فيها، فصرت محاصرًا. ندمت عندئذ على فضولي الشديد، لكن لحسن الحظ أنهما لم يبصراني، بل تحدثا عن الرجل الذي يرقد على الأرض.

قال أحدهما: «لقد قال إنه سيشي بنا، وهذا ما سيفعله. لن يختلف شيء إن أطلقنا سراحه الآن، سينقلب علينا.»

فقال الآخر: «أعتقد أنك محق يا بيل، إليك ما أفكر به: سنتفقد هذه السفينة بحثًا عن كل ما بإمكاننا العثور عليه، ثم نتركه هنا ونتجه إلى الشاطئ. لن تصمد هذه السفينة أكثر من ساعتين قبل أن تتصدع وتنجرف مع مياه النهر. لن يجده أحد قط.»

ما إن تركا الغرفة، حتى غادرتها، كنت أتصبب عرقًا من الخوف. همست في الظلام بالخارج: «جيم»، كان بجانبي فأجاب ندائي على الفور، فقلت: «أسرع يا جيم، ليس هناك وقت. ثمة عصابة من القتلة على متن هذه الباخرة. إن لم نتخلص من قاربهم كي لا يفروا، فسيقتلون شخصًا ما، لكن إن أمكننا العثور على قاربهم، فسنحتجزهم حتى يأتي المأمور ويقبض عليهم. سأبحث عن القارب في هذا الجانب. ابحث أنت عنه في الجانب الآخر. ابدأ البحث من النقطة التي عقلنا عندها طوفنا و...»

فقال جيم: «آه، لا! ليس هناك طوف. لقد انحل الطوف وصرنا محتجزين هنا!»

الفصل الثامن

مصير الحطام

احتبست أنفاسي وكاد أن يغشى علي. كنت محتجزًا على حطام سفينة مع هذه العصابة! لكن لم يكن هناك وقت للشعور بالخوف. اضطررنا إلى البحث عن قاربهم من أجلنا نحن، فبحثنا كثيرًا إلى أن عثرنا عليه آخر الأمر. كدنا نصعد على متنه لكن عندئذ انفتح باب الغرفة التي حوت الرجلين، وتطلع أحدهما إلى الخارج. كان يقف على بعد قدمين فقط مني، لكنه لم يبصرني، بعدها عاد إلى الغرفة ليتحدث مع الرجل الآخر، فصعدت إلى متن القارب وجيم خلفي مباشرة وقطعت بسكيني الحبل الذي يصل القارب بالسفينة وابتعدنا.

لم نلمس المجاديف ولم ننبس بكلمة، بل بالكاد تنفسنا. حملنا الماء في صمت بعيدًا عن الحطام، وفي غضون وقت قصير صرنا على مسافة بعيدة جدًّا عنه، إلى حد أن الظلام غمرها تمامًا وصرنا في مأمن وتأكدنا من ذلك.

عندما ابتعدنا رأينا مصباح الباخرة يومض كشعلة صغيرة عند باب غرفة الرجلين، فعلمنا أن الوغدين قد فطنا إلى أنهما يفتقدان قاربهما، وأنهما بدءا يدركان أنهما في مأزق كشريكهما بالضبط.

بدأت أشعر بالقلق حيال الرجلين، فقلت لجيم: «سأفكر في قصة أقنع بها شخصًا ما بأن يعود من أجل تلك العصابة لينتشلها من حطام الباخرة.»

لم يمض وقت طويل قبل أن نجد طوفنا. شعرنا بالسعادة الغامرة لأننا كنا على متنه من جديد. جمعنا كل الأشياء التي كانت على قارب العصابة وحملناها إليه، وطفا جيم به على بعد مسافة قصيرة، وأضاء مصباحًا لأتمكن لاحقًا من العثور عليه.

أخذت القارب وجدفت به إلى الشاطئ، فلما بلغته وجدت حارسًا نائمًا إلى جانب قارب عبور، فأخبرته عن العصابة التي على متن الحطام، لكن كان الأوان قد فات، فبعد

أن تركني عثرت على جيم مجددًا ورأينا الحطام نفسه وقد انطفأ الضوء به وغشيه الظلام، وهو ينجرف مع مياه النهر! فسرت قشعريرة باردة في جسدي. كان قد غاص إلى عمق كبير في الماء، ولم أستطع رؤية أي شخص على متنه.

خبأت أنا وجيم الطوف والقارب قبل طلوع الفجر ثم تمددنا واستغرقنا في نوم عميق كالموتى.

عندما نهضنا تفحصنا الأشياء التي سرقتها العصابة، فعثرنا على الكثير من الملابس والكتب وأشياء أخرى؛ لم نكن قط بهذا الثراء. أمضينا عصر هذا اليوم في تبادل أطراف الحديث، وقرأت أنا من الكتب، وقصصت على جيم ما وقع على حطام السفينة، وأخبرته بأن هذه القصص تعد مغامرات، فقال إنه لا يريد المزيد من هذه المغامرات.

قرأت له عن الملوك والنبلاء والإيرلات الذين وصف الكتاب ملبسهم وحديثهم ومناداة بعضهم بعضًا بجلالتك وسموك وعظمتك بدلًا من سيدي، بعضهم تحدث أيضًا بالفرنسية.

خمننا أن الوصول إلى مدينة كايرو التي تقع جنوب مدينة إلينوي حيث يقطع نهر أوهايو المسار سيستغرق ثلاث ليال. نستطيع من هناك أن نبلغ الولايات التي انتفت منها العبودية، حيث سننأى بأنفسنا عن المشكلات. كان جيم قد افتقد بشدة أطفاله وقال إنه سيطلب من شخص ما إحضارهم ما إن يصل إلى هناك. كنت أعلم أن كلًا منا سيقع في ورطة إن ألقي القبض علينا قبل أن نصل إلى هناك؛ سيعاقب جيم على فراره، وأنا قد أقع في مأزق لمساعدته.

في الليلة التالية ضللنا الطريق وسط بعض الضباب وانفصل كل منا عن الآخر. كنت في القارب، فيما كان جيم على الطوف. استغرقنا وقتًا طويلًا في عثور كل منا على الآخر مجددًا، بعدها اكتشفنا أن الماء ساقنا لنجاوز مدينة كايرو، فما كان أمامنا إلا أن نعود بالقارب.

نمنا طيلة النهار بين شجيرات القطن كي نعاود التجديف ليلًا، لكننا لما عدنا إلى الطوف بعد حلول الظلام، كان القارب قد اختفى! كنا بحلول هذا الوقت قد واجهنا حظًّا عاثرًا العديد من المرات، مما أشعرنا بالاستياء الشديد.

مر بعض الوقت ولم ننبس بكلمة؛ فلم يكن لدينا ما نقوله، بعدها قررنا أن نسير بالطوف مع ماء النهر إلى أن تسنح لنا فرصة شراء قارب، عندها سنحاول أن نجدف عائدين. لم نرد أن نأخذ قاربًا دون أن نعيده، كما كان يفعل والدي، فقد يؤدي هذا إلى مطاردتنا.

من ثم انطلقنا بعد حلول الظلام بطوفنا، لكننا واجهنا المزيد من الحظ العاثر. اشتدت ظلمة الليل وتلبدت السماء بالغيوم، وهذا أسوأ طقس قد يجابهه المرء بعد الضباب؛ إذ لا يسعك أن تتبين شكل النهر أو الرؤية لمسافة بعيدة. تأخر الوقت وساد الهدوء، لكن عندئذ قدمت باخرة، فأشعلنا مصباحنا وبدا لنا أن من عليها سيبصروننا.

أمكننا سماعها وهي تشق الماء بثقل، لكننا لم نستطع رؤيتها جيدًا إلا عندما اقتربت. اتجهت نحونا مباشرة، فكثيرًا ما يفعل طاقم السفن هذا، ويحاول أن يرى إلى أي مدى يستطيع الاقتراب دون ملامسة المركبات الأخرى، بعدها يطل قبطان السفينة برأسه ويضحك ويحسب أنه شديد الذكاء. حسنًا، إنها آتية، ويبدو أنها تنحرف عن مسارها قليلًا. كانت هائلة الحجم، تسير على عجل، بدت وكأنها سحابة سوداء ضخمة حولها صفوف من حشرات سراج الليل المضيئة. سمعنا شخصًا ينادينا وبعض الأجراس التي تدق لإيقاف المحركات، والكثير من السباب وصفير البخار. قفز جيم من على متن القارب من ناحية وسقطت أنا من الناحية الأخرى، وأتت السفينة على القارب محطمة إياه.

غصت وحاولت العثور على قاع النهر. كانت سفينة ارتفاعها ثلاثون قدمًا ستمر من فوقي! وقد أردت أن تفصلني عنها مسافة كافية. اعتدت أن أمكث تحت الماء دقيقة، لكنني أعتقد أنني هذه المرة مكثت مدة تناهز الدقيقة ونصف الدقيقة، بعدها صعدت بسرعة إلى السطح حتى بلغ الماء إبطي إذ كادت رئتاي تنفجران، وأخرجت الماء من أنفي ولهثت قليلًا. كان صوت الموج بالطبع هادرًا، وقد أوقدت الباخرة محركاتها بعد عشر ثوان من إيقافها — فمن على متن هذه البواخر لا يعبئون كثيرًا بمن يركبون طوفًا — وأخذت تشق الماء محدثة اضطرابًا به حتى غابت عن مرمى البصر في الجو الملبد بالغيوم، مع أنني استطعت سماعها.

ناديت جيم عشرات المرات، لكنني لم أجد جوابًا، فجذبت في آخر الأمر لوحًا خشبيًّا لامسني وأنا أحرك ساقي لأطفو على وجه الماء، وسبحت بعزم نحو الشاطئ دافعًا إياه أمامي.

استغرق هذا وقتًا طويلًا، لكنني بلغت آخر الأمر الشاطئ آمنا. لم أستطع الرؤية لمسافة بعيدة، فأخذت أسير ببطء على أرض وعرة وقتًا طويلًا حتى عثرت على بيت عتيق الطراز من أحطاب الأشجار، كنت سأمر به، لكن قبل أن أفعل قفز الكثير من الكلاب منه وأخذوا يعوون وينبحون في وجهي.

بعد دقيقة صاح شخص ما من نافذة المنزل وسألني عن اسمي.

فقلت: «جورج جاكسون يا سيدي. لست إلا صبيًّا.»

فقال الرجل: «اسمع. ليس عليك أن تخاف إن كنت تقول الحقيقة. لن يؤذيك أحد، لكن لا تحاول أن تتحرك من مكانك، قف حيث أنت، ليذهب بعضكم لإحضار بوب وتوم. هل معك أحد يا جورج جاكسون؟»

– «لا يا سيدي.»

– «حسنًا يا جورج جاكسون هل تعرف آل شيبردسون.»

– «لا يا سيدي، لم أسمع بهم قط.»

– «ربما، تقدم يا جورج جاكسون، واحرص على ألا تفعل هذا بسرعة. تقدم ببطء شديد. افتح الباب بنفسك لكن بالقدر الذي يسمح لك بالدخول وحسب. أتفهمني؟»

لم أسرع، إذ لم يكن باستطاعتي هذا حتى لو وددت. سمعتهم يحررون قفل الباب ويزيلون عنه القضبان ويفتحون رتاجه، فدفعته قليلًا وتطلعت إلى المكان من الداخل.

كانت هناك شمعة على أرض الغرفة وقد وقف الجميع يتطلعون إلي، فتطلعت بدوري إليهم. أؤكد لكم أن الرجال ضخام الجثة الذين حدقوا بي أشعروني بالتوتر. أكبرهم كان رجلًا أشيب الشعر في الستين تقريبًا من العمر، أما الاثنان الآخران فكانا في الثلاثين من العمر أو أكثر. بدوا جميعًا حسني المظهر وجميلي الطلعة، وخلفهم وقفت سيدة لطيفة شمطاء، وخلفها شابتان.

ما إن دخلت حتى أغلق السيد العجوز الباب ووضع عليه القضبان وأغلق رتاجه وأمر فتيته بالدخول، فتأملوني جيدًا ثم قالوا: «إنه ليس من آل شيبردسون. إنه لا يبدو كذلك على الإطلاق.»

فقال العجوز إنه يأمل ألا أمانع تفتيشي بحثًا عن أسلحة، لكنه لم يقصد أذيتي. كان هذا للتأكد وحسب، وطلب مني أن أطمئن وأشعر وكأنني في منزلي، وقال إن علي أن أخبره بكل شيء عن نفسي، لكن السيدة العجوز قالت: «بوركت يا سول، المسكين مبلل تمامًا، ألا تعتقد أنه جائع؟»

فأجابها العجوز: «أنت محقة يا رايتشل. نسيت هذا.»

فقالت العجوز: «بيتسي أحضري له ما يأكله بأقصى سرعة. المسكين! باك اصعد الدرج الأعلى واحضر بعض الملابس لإعطائها له.»

بدا باك في عمري — في الثالثة أو الرابعة عشرة من العمر أو نحو ذلك — مع أنه كان أكبر حجمًا قليلًا مني.

اختلقت قصة وأخبرتهم بأنني وقعت من على ظهر باخرة وأنني يتيم، فأخبروني أن بإمكاني أن أسكن في منزلهم بقدر ما أريد، ثم خلد الجميع إلى النوم حتى قرابة طلوع النهار. عندما استيقظت صباحًا نسيت الاسم الذي أخبرتهم بأنه اسمي — تبًّا لكل هذا! فتمددت في مكاني قرابة ساعة محاولًا تذكره ثم سألت باك عندما استيقظ إن كان يستطيع التهجي.

فقلت: «أراهن أنك لا تستطيع هجاء اسمي.»

فقال: «ج، و، ر، ج، ج، ا، ك، س، و، ن. هاك.»

فقلت له: «لقد نجحت. لم أحسب أنك تستطيع هذا.»

وحرصت على أن أتذكر هجاء اسمي تحسبًا لأن يسألني عنه أحد. علمت فيما بعد أن هذه العائلة اسمها عائلة جرينجرفورد.

كان هناك الكولونيل جرينجرفورد وهو رجل بالغ الطول والرشاقة، عيناه شديدتا السواد، غائرتان حتى إنهما تبدوان وكأنهما تطلان من كهف، أما شعره فكان أسود منسدلًا يتدلى إلى كتفيه.

حمل بيده عصا خشبية ذات رأس فضي، وقد كان طيبًا للغاية؛ بإمكانك أن تشعر بهذا. ابتسمَ في بعض الأحيان، وكان هذا مشهدًا جميلًا، لكن إن بدا عليه الغضب، فستشعر بأنك تود أن تفر أولًا ثم تعرف ما الأمر فيما بعد. لم يكن عليه حتى أن يخبر أي شخص بأن يحسن السلوك، كان الجميع يحسنون التصرف في حضرته.

بوب كان الابن الأكبر، يليه توم، وكلاهما كان طويلًا جميل الطلعة، عريض المنكبين جدًّا، أسمر الوجه، ذا شعر أسود طويل وعينين سوداوين، ارتديا من رأسيهما إلى قدميهما ملابس من الكتان الأبيض — شأنهما شأن الكولونيل العجوز — وقبعة بنما خفيفة من القش.

هناك أيضًا الآنسة تشارلوت التي كانت في الخامسة والعشرين من العمر، واتسمت بالطول والأنفة. كانت جميلة، طيبة القلب، لكن قد يعتريها الغضب كأبيها بالضبط، أختها الآنسة صوفيا اتسمت بدورها بالجمال، لكن جمالها كان من طراز مختلف؛ كانت شديدة الرقة واللطف، ولم تكن إلا في العشرين من العمر.

أقامت عائلة أخرى بالجوار تعرف بعائلة شيبردسون، وهي عائلة تتمتع بثراء وعظمة عائلة جرينجرفورد. علمت من باك أن العائلتين تتنازعان منذ سنوات، ولم يذكر أحد كيف بدأ النزاع، لكن أفراد العائلتين كانوا يبدءون في إطلاق الرصاص حالما يلتقيان.